بيئة الجزيرة العربية وأثرها في النصّ الأدبي

إن النصّ وليد بيئته، فهو يتشكل ويحمل مضامين محددة انطلاقا من شروط وأوضاع تمنحها أو تفرضها البيئة، سواء أقصدنا بالبيئة الشرط الجغرافي أو المناخي أو الاجتماعي، وكمثال على ذلك فنحن لا نتوقع أن نجد في نص شعري جاهلي حديثا عن الثلج أو حديثا عن السمك، لسبب بسيط وهو غياب هذه الظاهرة الطبيعية من بيئة الجزيرة، ولكون العرب لم يعرفوا نشاطا بحريا ذا قيمة قبل الإسلام ولغياب أنهر دائمة الجريان في المنطقة.

إن درس البيئة يشمل الوضع التاريخي أيضا، وما يشمله ذلك من مستوى التطور التكنولوجي والثقافي السائد، فنحن أيضا لا نتوقع أن نجد في النص الشعري أو حتى غير الشعري حديثا عن السيارة مثلا أو عن الديمقراطية وحقوق الإنسان، فهذه أمور تتجاوز هذه البيئة في المستوى التاريخي.

إذن سيكون حديثنا عن تلك النصوص التي وجدت في مكان وزمان ما، ونتطلب أن تكون تلك النصوص متوافقة مع ما نعرفه عن ذلك الزمان والمكان، وأيّ مخالفة لذلك ستقودنا نحو إبداء شكنا في نسبة تلك النصوص لتلك الفترة ولذلك المكان. لذلك فإن الاطلاع على البيئة ومعرفة تفاصيلها بما في ذلك الأحداث التاريخية وظروف المناخ وطبيعة الأرض وتكوين إنسان المنطقة وثقافته وموضع تلك البيئة في إطارها النسبي العام وهو حضارة الإنسان على هذا الكوكب، من الأمور الضرورية التي يجب على طالب الأدب أن يستوعبها بشكل كاف وأكيد.

أ ـ طبيعة الجزيرة العربية:

في الحقيقة الجزيرة العربية ليست جزيرة بالمعنى العلمي للمصطلح، فهي شبه جزيرة لأن البحر لا يحدها شمالا، ففي الشمال يوجد العراق والشام، أما في الشرق فيوجد الخليج العربي وبحر عمان ومن ورائه بلاد فارس (إيران الحالية). أما في الجنوب فيوجد المحيط الهندي وفي الغرب البحر الأحمر، ومن ورائه مصر وبلاد النوبة والسودان والحبشة.

تبلغ مساحتها حوالي مليونين ونصف كيلومتر مربع، وهي ذات طبيعة صحراوية بصفة عامة، لكنها متنوعة التضاريس والمناخات، ففي غربها تتألف من شطرين: الحجاز في الشمال واليمن في الجنوب، ويتميز الحجاز بطبيعته الجافة القاسية وتضاريسه الصخرية وبفيضاناته الموسمية في الشتاء، والتي تروي مراعي قليلة العشب لا تلبث أن تزول، ومن مدنه مكة والطائف ويثرب (المدينة المنورة).

بخلاف مكة فإن يثرب والطائف أقيمتا وسط واحة نخيل كبيرة، وتنتشر في الحجاز قبائل عربية وعدد محدود من القبائل اليهودية، فمن العربية قريش في مكة وثقيف في الطائف والأوس والخزرج في يثرب، وهذيل جنوب مكة، أما اليهود فقد كانوا ثلاثة قبائل بني النضير وبني قينقاع وبني قريظة وقد انتشرت في مدينة قريبة من يثرب هي خيبر.

أما اليمن فهي بلاد عرفت حضارات قديمة عريقة، من أشهرها سبأ وعدن وحمير، وامتاز اليمن بوجود نظام سياسي متطور على شكل إمارات ودول مزدهرة زراعيا وتجاريا بخلاف الحجاز الذي لم يخرج من إطار البداوة إلا بعد الإسلام، كما أنّ اليمن من الناحية الجغرافية يمتاز بمناخ أكثر اعتدالا ونسبة تساقط مرتفعة مما ساعد على إيجاد زراعات غنية وشبكات للري.

من القبائل العربية المنتشرة في اليمن: همدان ومذحج ومراد، ومن مدنه نجران ومأرب وصنعاء وعدن.

وإلى شرق اليمن توجد أرض حضرموت، وكما يدل اسمها فهي أرض خالية مقفرة قاسية لا تصلح للمعيشة، ولا مدن فيها ولا قرى، لكن السكان الذين عاشوا على طرفها الشرقي (عمان الحالية) سموا بالحضارمة ومن أشهر قبائلهم تجيب ونبهان. وتكثر فيه الجبال الخضراء التي تتلقى رطوبة المحيط الهندي.

في الجهة الشرقية نجد البحرين ومن أشهر مدنها هجر، وقطر، ويمارس أهل هذه المناطق صيد المرجان واستخراج اللؤلؤ، ومن قبائل هذه البلاد "عبد القيس" و"تميم".

أما وسط الجزيرة فيسمى نجد، حيث تقع الرياض الحالية، وهي صحراء مرتفعة عن مستوى سطح البحر، تمتاز بهوائها العليل وبازدهار مراعيها في الشتاء، ويسمى الجزء الشمالي المجاور للعراق بادية العراق والمجاور للشام بادية الشام.

وكأي صحراء أخرى يمتاز مناخ الجزيرة بالحرّ الشديد صيفا وبالاعتدال شتاء (شتاء قصير)، والفارق الكبير بين درجة الحرارة نهارا وليلا، ويعتمد السكان على ماء المطر لانتعاش المراعي وامتلاء الآبار والمياه الجوفية، لذلك كانوا ينتظرون قدوم الغيث الموسمي على أحرّ من الجمر، فهي الفرصة الوحيدة لجمع الكلأ قبل قدوم الصيف، ورياحه الجافة التي أسموها ريح السموم في مقابل الريح الشتوية المنعشة المسماة ريح الصبا.

من أشجار الجزيرة المزروعة النخيل والكروم، ومن الأشجار البرية السدر والأثل، ومن نباتها الحلفاء والحناء.